رابطة العالم الإسلامي
الأمانة العامة
الإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات

رؤى في تأصيل الثقافة الإسلامية

إعـداد

الدكتور عبد السلام محمد الأحمر

عضو المكتب التنفيذي للرابطة المحمدية للعلماء - المغرب

مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة الخامس عشر

الثقافة الإسلامية .. الأصالة والمعاصرة

الذي تنظمه

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

٤ - ٦ / ذو الحجة / ١٤٣٥ هـ
٢٨ - ٣٠ / سـبتمبر / ٢٠١٤ م

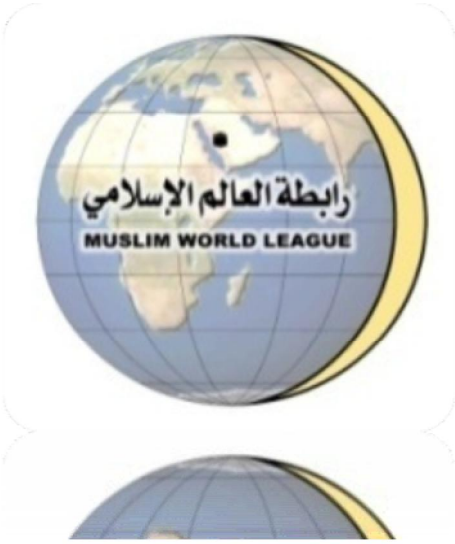

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

صندوق البريد (٥٣٧) أو (٥٣٨) مكة المكرمة (٢١٩٥٥)

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٥٦٠٠٩١٩- الفاكس: ٥٦٠١٣١٩-٥٦٠١٢٦٧

برقياً: رابطة - مكة، تلكس: ٥٤٠٠٠٩ و٥٤٠٣٩٠

www.themwl.org

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

من المعلوم أن صعوبة البحث في الثقافة، فضلاً عن كونها تنطلق من اختلاف العلماء والمفكرين الواسع في تحديد مفهومها ودلالاتها، والحسم في كثير من مكوناتها وقضاياها، (فإن هذه الصعوبة) تزداد كلما حاولنا البحث في أصولها ومنطلقاتها، وآليات تجديدها وإصلاحها حتى تناسب العصر، وتمكن أهلها فيه من مواجهة تحدياته بثبات واقتدار.

فطبيعي إذن أن تختلف الرؤى وتتنوع في تأصيلها، وطبيعي أيضاً ألا يبلغ المرء فيها المبتغى في محاولات أُولى متواضعة وضمن صفحات معدودات.

أولاً: مفهوم الثقافة:

كلمة ثقافة من الكلمات المدرجة حديثًا في اللغة العربية لفظًا ومعنى، وقد صِيغت من كلمة (ثقف) التي لها دلالات مقاربة لمشمول الثقافة المعروفة عندنا اليوم.

وهذا اللفظ ورد في القرآن في مواضع؛ منها قوله تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢]، وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: ٥٧]، قال مقاتل بن سليمان شارحًا مدلوله: «إن أدركْتَهم في الحرب وأَسَرْتَهم»[(١)].

وفي مختار الصِّحاح: ثَقُفَ الرجل من باب ظرف: صار حاذقًا خفيفًا فهو ثَقْفٌ.. والثِّقَافُ: ما تُسوَى به الرماح، وتثقيفُها: تسويتها، وخَلٌّ ثِقِّيفٌ- بالكسر والتشديد-: «أي حامض جداً»[(٢)].

ومنه أيضا: «غلام لَقِن ثَقِف: أي ذو فِطْنة وذكاء، ورجُل ثَقِفٌ، وثَقُفٌ، وثَقْف، والمراد أنه ثابت المعْرفة بما يُحْتاَج إليه، وفي حديث عائشة تَصِف أباها رضي الله عنهما: وأقام أوَدَه بثِقافه، الثِّقَاف: ماتُقَوَّم به الرّماح، تريد أنه سَوّى عِوَج المسلمين»[(٣)].

وفي لسان العرب: ثَقِفَ الشيءَ ثَقْفًا وثِقافًا وثُقُوفةً: حَذَقَه، ورجل ثَقْفٌ وثَقِفٌ وثَقُفٌ: حاذِقٌ فَهِم.

---

(١) تفسير البغوي: دار طيبة للنشر والتوزيع. ط٤، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م، ص ١٨٤.
(٢) مختار الصحاح.
(٣) النهاية في غريب الحديث.

ورجل ثَقِفٌ لَقِفٌ وثَقْفٌ لَقْف: أَي خَفيف حاذِق، وقيل: سريعُ الفَهْم لِما يُرمَى إِليه من كلام باللسان، وسريع الأَخذ لما يُرمى إِليه باليد، وقيل: هو إِذا كان ضابطاً لما يَحْويه قائماً به، وقيل: هوالحاذق بصِناعته.

وفي المعجم الوسيط: ثقِف ثَقْفاً: صار حاذقاً فطناً، وثقِف العلمَ والصناعة: حذقهما، وثاقفه مثاقفةً وثقافاً: لاعَبه إظهاراً للمهارة والحِذق، وثقف الشيءَ: أقام المُعْوَّج منه وسَوَّاه، وثقف الإنسان: أدَّبه وهذَّبه وعلَّمه، والثقافة: العلوم والمعارف والفنون المطلوب الحذقُ فيها.

ويُعَرِّف مالك بن نبي الثقافةَ في كتابه (مشكلة الثقافة) فيقول: إنها (مجموعة الصفات الخُلقية والقِيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح -لا شعورياً- العلاقةَ التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي وُلد فيه)[1].

واتجهت تعاريفُ أخرى إلى أن الثقافة هي المخزون الحي في الذاكرة، المتراكم من محصلة العلوم والمعارف والأفكار والمعتقدات والآداب والأخلاق والقوانين والأعراف والتقاليد والمدرَكات الذهنية والحسية والموروثات التاريخية واللغوية والبيئية، التي تَصوغ فكرَ الإنسان وتمنحه الصفاتِ الخلقيةَ والقيمَ الاجتماعيةَ التي ينشأ عنها سلوكُه العملي في الحياة.

وتختلف الثقافة عن الحضارة من حيث «إن الثقافة هي مضمون حياتنا العامة، أما الحضارة فهي الشكل،أو إن الثقافة هي الخلفية اللاواعية للحياة المتحضرة، والقناعات والميول المسلَّم بها، والذوقيات والرمزيات التي يستند

(١) فوزي الجودة - الغزو الثقافي، دراسة منشورة في دورية/ المناضل/ العدد ٢٨٠، ص٤٤.

إليها السلوك الإنساني وتتحكم في المنتجات الحضارية على اختلاف أشكالها»[١].

وكل ثقافة تنتمي إلى الأمة التي نشأت في أحضانها، وإلى المذهب الفكري أو الديني الذي توجهت بتعاليمه، وتأثرت بعقيدته وعباداته وأخلاقه، مما يجد صداه في الكلام عن الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية، فالثقافة تولَد وتترعرع في أجواء المجتمع البشري والأمة المكوَّنة من عدة شعوب وأعراق ولغات، فتعكس خصوصياتها، وتجسد رسالتها في الحياة، وقد تُسمَّى ثقافةً ما بالسمة التي تغلب عليها، فنقول: ثقافة الحوار، ثقافة العولمة، وثقافة المسؤولية.

والثقافة أيضاً مقاييس أخلاقية ونظرة عامة إلى كل جوانب الحياة الروحية والمادية، التي تَصوغ السلوكَ والعادات والشعور واللاشعور، وتهدف إلى الارتقاء بالإنسان إلى مستوى مَثلها الأعلى.

كما أن الثقافة بما تشتمل عليه من معاني التكوين وامتلاك المعرفة والمهارة والوعي والمسؤولية، يفترض فيها أن تكون أداةَ بِناءِ الإنسان اليقظ والفعال والمسؤول، القادر على الإسهام في الحفاظ على أمته وتراثها الغني بضروب علوم الدين والدنيا، وتقديم صورةٍ مشْرِقة وأمينة لمزاياها وخصوصياتها الأخلاقية والحضارية بين الأمم[٢].

---

(١) عبد الكريم بكار، ثقافة النهضة أفكار وقيم من أجل التقدم، دار وجوه للنشر والتوزيع ط١، ١٤٣٤/ ٢٠١٣ص ٢٣.

(٢) عبد السلام محمد الأحمر، ثقافة الأمة الوسط، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسسكو، ١٤٣٠/ ٢٠٠٩.

ثانياً: الإيمان بالله أصل الثقافة الإسلامية

يعتبر الدين السماوي مصدراً أساسًا لتشكيل الثقافات، نظراً لقدرته على توجيه الفكر والوجدان والسلوك، والتأثير العميق في النشاط الإنساني الممارَس في مختلف ميادين الحياة، لاسيما ما تعلَّق بالمعتقدات والعادات والتقاليد، والإبداع العلمي والأدبي، وأوجُه الإنجاز الحضاري.

فداخل كل ثقافة توجد عناصر موجِّهة تتحكم في تحديد وجهتها العامة، التي يمكن اكتشافُها والتماسُ معالمها في مختلف مكوناتها ونتاجاتها المتنوعة، والتي يعود أصلُها إلى المعتقَد الجماعي الذي تَبلور وتراكمت معطياتُه عبر الحِقب الماضية، فالثقافة: «مجموعة من الصفات الخُلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أَوَّليٍّ في الوسط الذي وُلد فيه»[١].

والعنصر الأساس في تشكيل الثقافة الإسلامية هو الإيمان بالله وحده لاشريك له، وبمحمد الرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام، فكان هذا التحول العظيم في واقع العرب مؤْذنـًا بتغيير ثقافي جذري،حيث نقل الناسَ من ثقافة الشرك والوثنية، إلى ثقافة توحيد الله واستمداد التعاليم والتوجيهات الهادية من كتاب الله تعالى، ومن سنن الرسول ﷺ القولية والعملية.

كما أنتجت الأمة في إطار الإيمان بالله، والاستهداء بالإسلام، تراثـًا عظيمـًا ضم علومَ الشرع؛ وعلومـًا أخرى، كالطب والهندسة والفَلك والجغرافيا، وأبدعت في مجال الفلاحة والصناعة والتجارة والملاحة البحرية وغيرها، وأصبحت قِبلة البعثات العلمية وطلاب معارف الدين والدنيا من كل أنحاء

---

(١) مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ١٤٠٦/ ١٩٨٦، ص٨٣.

المعمورة، ويعتبر القرآن الكريم منطلق الحث على طلب العلم النافع الديني والدنيوي، فكان أول أمر وجه للنبي عليه الصلاة والسلام هو الأمر بالقراءة، ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

وأثنى الله على العلماء في القرآن في مواضع عديدة؛ منها: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]، ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد: ١٩]، ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

كما أن القرآن الكريم معجزة الرسول الخاتم عليه أفضل الصلاة والسلام، وهو معجزة خالدة، تحدَّى اللهُ به الإنسَ والجنَّ أن يأتوا بمثله، فما استطاعوا عجزاً منهم واستسلاماً.

والنبي الأمي محمد ﷺ ظل يحث على طلب العلم، ويؤكد وجوبَه قبل أن تؤسس الأمةُ لثقافة العلوم والآداب، والنقل والعقل، والغيب والشهادة، والدنيا والآخرة، والفكر والحوار والمناظرة، وتقيم صرح حضارة المعرفة والهداية التي شع نورُها في أرجاء الأرض.

ومن الأحاديث النبوية في باب طلب العلم: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[(١)]، وحديث «**من سلك**

(١) سنن ابن ماجه (١/ ٨١)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٧٤).

طريقًا يطلب فيه علمًا؛ سلك الله به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رِضىً لطالب العلم، وإن العالِم يستغفر له مَن في السموات ومَن في الأرض والحيتانُ في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلةَ البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثةُ الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهمًا، وإنما ورَّثوا العلمَ؛ فمَن أخَذه أخَذ بحظٍّ وافرٍ»[1].

هذا التراث الضخم النابع من الإيمان بالله ورسالة الإسلام الخالدة، مهَّدَ لتغييرات واسعة في التصورات والأفكار والأخلاق والسلوك، وأعلى من قيمة العلم بالله ودينه الحنيف، وأَسس لبناء ثقافة جديدة قائمة على قيم الإيمان بالله وتوحيده بلا نِدٍّ أو شبيه، وإفرادِ الله بالعبادة والعبودية، والقطع مع كل مظاهر الشرك والخرافة والضلال والاستعباد: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وزمنَ البعثة؛ شعرت قريش بأبعاد التحولات العميقة التي حملتها رسالة العلم والحق، والتي ستطال معتقداتهم وتقاليدهم وعاداتهم وأعرافهم وعلاقاتهم، بل وطريقة عبادتهم وأَكلهم ونومهم، وبَيعهم وشرائهم ومشاعرهم، ونظرتهم لأنفسهم ولكل شيء في الحياة من حولهم، بخلاف ما اعتادوا عليه من آبائهم وأجدادهم، فأقبل عقلاؤها على الدخول في هذا الدين الخاتم، الذي بشَّرهم بعز الدنيا وسعادة الآخرة، وامتلاك ناصية الشرف والسيادة، ومقومات الريادة بين الأمم، فجعلت

(١) رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه والدرامي، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح.

منهم أساتذة يُرشدون العالمين إلى معرفة الخالق وعبادته، ويَسعون في تحرير الناس من التِّيه عن سبيل الله؛ والخبط في ظلمات الحياة: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

ولقد اكتسبت الثقافة الإسلامية مميزاتها، انطلاقاً من عطاءات الإيمان بالله، الذي جعلها تقوم على أساس الوحي الخاتم المحفوظ، والذي يمنحها الثبات الذي لا تنال منه متغيراتُ الزمان والمكان، كما هو حاصل في الثقافات الأخرى التي تخضع لتحولات كبيرة تأتي على أصولها، ولاتكاد تُبقي منها على شيء، لأنها لم تكن مؤسسة على الحق الذي من شأنه الديمومة والاستمرار.

فالإيمان بالله هو المحور الأساس الذي تدور عليه جميع مكونات الثقافة الإسلامية، وهو الذي تتميز به عن غيرها من الثقافات الأرضية الصادرة عن رُؤىً بشريةٍ محدودةِ الأُفق، ولا تصمد في وجه التحولات المتلاحقة في الواقع، كما أنها تعاني قصوراً شديداً ناجماً عن التصاقها بالأرض، وانحصارها في دائرة التجربة العقلية، «فالأمة التي تتحدد فيها هوية الإنسان وجنسيته على أساس الإيمان، هي وحدها التي تكون ثقافتها، أي قيمها ونُظمها وأخلاقها وعاداتها وتقاليدها وفضائلها، وشبكة العلاقات الاجتماعية فيها، مستمدةً من الإيمان، وذات مضامين إيمانية»[1].

(١) ماجد عرسان الكيلاني، إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها، كتاب الأمة رقم ٣٠، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر، ١٤١٢، ص٤٣ بتصرف.

ويُخشَى على الثقافة الإسلامية أن تصاب مرجعيتها الإيمانية بالضعف والوهن، مما يعرضها لانحرافات تُفقدها خصوصياتها ومميزاتها، وتوقف عطاءاتها في حياة الفرد والمجتمع، فثمة ارتباط واسع بين صحة تَدَيُّن الأمة واستقامة ثقافتها، وبين اضطلاعها بمختلف أدوارها وتحقيقها لأهم مقاصدها.

ولقد عرفت الثقافة الإسلامية تراجعاتٍ كبيرةً عن حقيقة الإيمان والتوحيد، في الماضي والحاضر، فقديماً عندما اتصلت بالفلسفة اليونانية وهي عنصر دخيل،نلحظ كيف «امتدت وطغت وأصبحت مصدراً لبناء كثير من التصورات في العقل المسلم؛ بل صارت مصدراً لبناء بعض المعتقدات في القلب والوجدان المسلم، بدلاً عن آيات الكتاب والمتواتر من سنة رسول الله ﷺ، التي كانت تمثل المصادر الوحيدة لعقيدة المسلم، وربما أخضعت آيات العقائد للتأويلات القريبة أو البعيدة لتستجيب لمقتضيات الفلسفة، وما صار يُعرف بعلم الكلام قد قام على الفلسفة وبُنِيَ عليها»[1].

وعندما تركن الأمة إلى الدنيا وزينتها ومباهجها، فيشيع فيها طلبُها من غير طريقها المشروع والمأمون، ويفشو فيها الجهل والخرافة، وتنغمس في الإشباعات الشهوانية المحظورة،وتستشري فيها البدع ومحدثات الأمور التي تحل فيها محل السنن الهادية، وتتحول العبادات إلى عادات جوفاء خالية من روح الإيمان النابض، آنئذٍ تَسود ثقافةٌ مغايرة، منبتَّة عن أصلها الإيماني المَكين، والذي تصير في حال ضعفه غريبةً عن نهج الإسلام ومقوماته الربانية الخالدة، فيسري فيها التخلف الشامل في مجالات الفكر والسلوك والاجتماع والتنمية، مما يستنفر العلماءَ وقادةَ

(١) طه جابر العلواني، ابن تيمية وإسلامية المعرفة، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط٢، ١٤١٥هـ، ص٢٠- ٢١.

الفكر، للقيام بواجب الإصلاح والتجديد، الذي يعيد ربط الثقافة بأصل الإيمان والتوحيد الذي لا تقوم لها قائمة إلا على أساسه الراسخ، وذلك لأن «وضوح المنهج أو إعادة تشكيل مركز الرؤية، هو المنطلق الصحيح لتقويم الواقع، وإبصار كيفيات صناعة المستقبل، ذلك أن الأزمة الحقيقية أو الأزمة الأم التي يعاني منها العقل المسلم المعاصر؛ هي أزمة فكر، أو أزمة شاكلة[١] ثقافية إن صح التعبير، وذلك بسبب انسلاخه من مرجعيته، وإن ما وراءها من الأزمات يمكن أن تعتبر إلى حد بعيد من أعراض ومظاهر الأزمة الثقافية»[٢].

فالشاكلة الثقافية التي تحيى الثقافة الإسلامية بإحيائها، وتمكن من نهضة الأمة من كبوتها التي تواصلت على امتداد الحِقبة الحالية، لن تكون غير الإيمان بالله وتوحيده، وما يتصل به من حقائق وركائز اعتقادية وسلوكية، «إن هذا الإيمان هو الحق الذي تقوم عليه السماوات والأرض، وتقوم عليه الحياة كلها، وبغير هذه الحقيقة الكبرى، تضطرب الأشياء حتى كأنه لا يعود هناك حقائق، وتختلط حتى لايعود هناك شيء ثابت»[٣].

إن ما تعانيه الأمة اليوم من تمزق وانقسام، وما تعرفه أخلاقها من تَدنٍّ وانحطاط، وما تقاسيه من نكبات وأزمات، يعكس كل ذلك مدى عمق واتساع الخلل الحاصل في بِنيتها الثقافية، ومدى الحاجة الملحة إلى المبادرة بإصلاح ثقافي شامل، على أصول العقيدة الإسلامية الصحيحة.

---

(١) الشاكلة: الطبيعة والسجية والهيئة، وفي التنزيل: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٨٤].

(٢) عمر عبيد حسنة، الشاكلة الثقافية مساهمة في إعادة البناء، المكتب الإسلامي، ط١ - ١٤١٤/ ١٩٩٣، ص٤٠.

(٣) عدنان علي رضا النحوي، التوحيد وواقعنا المعاصر، دار النحوي للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١١/ ١٩٩٠، ص ١٨.

ثالثاً: تأصيل الاتجاه العام للثقافة الإسلامية

لكل ثقافة اتجاه عام يرسم معالمها، ويحدد خصوصيتها، وتُبنى عليه مقوماتها الأساس، فيبرز بجلاء في جميع امتداداتها الفكرية والسلوكية، ويتجسد في رموزها وسماتها العامة.

وقد يعبَّر عن الاتجاه العام للثقافة، بمصطلح «الشاكلة الثقافية»، كما تقدَّم عند عمر عبيد حسنة الذي يقول: «وقضية إعادة التشكيل الثقافي، أو بناء الشاكلة الثقافية التي يعمل عليها الإنسان ويصدر عنها في دراساته وعلاقاته وأهدافه وحتى وسائله في كثير من الأحيان، يمكن أن تعتبر القضية المُلِحَّة والأهم في جدول الأولويات»[١]، ويسميه آخرون: بِنية الثقافة.

ويظهر الاتجاه العام للثقافة خاصةً؛ في القيم التي تتبلور في إطارها، فالإيمان بالله وتوحيده والعمل الصالح والحساب والجزاء والعقاب،تُعد من القيم الأساس المشَكِّلة لاتجاه الثقافة الإسلامية: «الإيمان أكبر من أن يُنظر إليه على أنه قيمة من القيم، إنه القيمة العظمى التي تجعل لكثير من القيم معنىً وقيمة، ولذلك فإني أحب أن أقول إن الإيمان هو (قيمة إطارية) توجيهية معيارية ذاتُ وزنٍ خاص»[٢].

وإذن فإن التغيير الثقافي يقتضي مراجعةً شاملةً وتقويماً موضوعياً لما قد خالط عقيدتنا التوحيدية من شوائب سلبية طمست بعض جوانبها المشرقة ومضامينها الباعثة على الفعل الخلاق والعطاء الحضاري المتجدد، كما قال مالك بن نبي: «وإنه ليجب بادئ الأمر تصفيةُ عاداتنا وتقاليدنا وإطارنا الخلقي

---

(١) الشاكلة الثقافية، مرجع سابق، ص٤٠.

(٢) ثقافة النهضة مرجع سابق، ص ٥٦.

والاجتماعي مما فيه من عوامل قتَّالة، ورِممٍ لا فائدة منها، حتى يصفو الجو للعوامل الداعية إلى الحياة، وإن هذه التصفية لا تتأتى إلا بفكر جديد، يحطم ذلك الوضعَ الموروثَ عن فترة تدهور مجتمع أصبح يبحث عن وضع جديد هو وضع النهضة»[١].

والثقافة الإسلامية الأصيلة المتجددة على أساس الإيمان الحق والتوحيد الخالص، تشمل الفكر الموجه للنفس والمفجر لطاقاتها الخلاقة، والحافز لها على الإبداع والانطلاق في معركة البناء والنماء.

إن حركة الأمة نحو النهضة في شتى مجالات الحياة، تستمد قوتها الدافعة وغايتها العامة، مما تشتمل عليه من اعتقاد جازم بمراقبة الله الدائمة لعباده، ومثولهم بين يديه للحساب والثواب أو العقاب يوم القيامة، والذي يعبئ النفسَ في سبيل الصلاح والفلاح في مناحي الحياة كلها.

كما أن تغيير ما بالنفس من معتقدات وأفكار وطموحات وأخلاق، وما يسكنها من إرادات واستعدادات، وكذا من عيوب وهنات، وما يتحكم فيها من تقاليد وعادات، هو المنهج الأقوم لكل تغيير يرام خارج النفس في السلوك والفكر والمعاملات، وفي مجالات التنمية والاجتماع والعمران.

١) الاستخلاف الإسلامي والاتجاه العام للثقافة الإسلامية

إن ممارسة الاستخلاف في الأرض تتسع لجميع بني آدم على اختلاف معتقداتهم وتنوع مسالكهم في الحياة، بحيث يمارسه كل إنسان من خلال ما

---

(١) مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦، ص٨٠.

يشاء من تصورات ومبادئ؛ قد يرجع فيها إلى الوحي المنزل وهديه المحكم، وقد يختار الاعتقادات والأفكار التي ينتجها العقل الجمعي ويستند فيها إلى موروث الآباء والأجداد، وهو الحال الغالب على واقع البشر منذ أن وُجدوا على الأرض، كما يتطابق مع قول الملائكة في الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وأيضا مع قول إبليس لعنه الله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠].

ويتوالى تأكيد هذه النسبة في عدة آيات قرآنية: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

فبنو آدم يمارسون في الأرض استخلافًا عامًا يساوي بينهم، سواء آمنوا أم كفروا، أصلحوا أم أفسدوا، اهتدوا إلى الله فعرفوه وآمنوا برسالاته ورسله، أم جحدوا وعاندوا وحادوا عن نهجه.

لكن الاستخلاف في الأرض عندما يتم على أساس الإسلام، يناسب تسميته بالاستخلاف الإسلامي -في مقابل أنواع أخرى من ممارسة الاستخلاف على غير نهج الإسلام- والذي يتحقق به خير الدنيا والآخرة،وذلك كلما استوفيت شروطه المعلومة.

ويتأهل المسلمون لاستحقاق استخلاف خاص في إطار الإسلام،إذا أطاعوا الله تعالى والتزموا هديه، وانقادوا لشرعه، واتبعوا سنة نبيه عليه الصلاة والسلام، فيكون معنى الاستخلاف حينئذ: تمكينهم من أسباب القوة والمنعة

والسيادة والغلبة في الأرض، وتحميلهم مسؤولية هداية مَن يَلونهم من الأمم والحضارات إلى ما به سعادة الدنيا والآخرة ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

وكلمة الاستخلاف تنطوي على معاني التكليف والعهد إلى المستخلَف بأداء مَهام محددة بتوجيه من المستخلِف، ومن ثم فإن فهْمَ خلافة الإنسان عن الله؛ يحتاج التوقفَ أيضًا عند معنى الأمانة التي حملها الإنسانُ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢-٧٣].

قال القرطبي: والأمانة تعم جميعَ وظائف الدين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور، وذكر حديثَ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى لآدم: يا آدم، إني عرضتُ الأمانةَ على السموات والأرض فلم تُطقها، فهل أنت حاملها بما فيها؟ فقال: وما فيها يا رب؟ قال: إن حملْتَها أُجِرْتَ، وإن ضيعْتَها عُذِّبْتَ، فاحتملها بما فيها، فلم يلبث في الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر حتى أخرجه الشيطان منها**»، قَالَ: «**وَالْأَمَانَةُ هِيَ الْفَرَائِضُ الَّتِي ائْتَمَنَ اللهُ عَلَيْهَا الْعِبَادَ**»[(١)].

فالاستخلاف إذن هو الأمانة العظمى المقتضية حرية العمل للإنسان في الأرض مدة حياته فوقها، فهو مسؤول عن نفسه مستخلَف فيها كي يزكيها ويُقوِّم

(١) تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (١/ ٤٧٤).

اعوجاجَها بهَدي الوحي، أو يدسيها باتباع الهوى واقتراف الآثام والموبقات: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

كما أنه مسؤول عن إعمار الأرض، بإقامة الدين ونشر أخلاقه والتمكين لنهجه،واستثمار خيرات الأرض، وتسخيرها عن طريق مختلف العلوم والمعارف بقصد الانتفاع بها في مجالات الفلاحة والصناعة، وإقامة ما تدعو إليه مصالحه من العمران: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

فالاستخلاف في الأرض يحيل على قيم المسؤولية وحرية الاختيار والممارسة ضمن الأعمال المحمودة والمذمومة؛كالأمانة والخيانة، والحرية والعبودية، والحلال والحرام، والحق والباطل، والجمال والقبح، والبناء والهدم، والتسامي والانحطاط، والنظام والفوضى.

فهذه الرؤية الاستخلافية ظلت حاضرة بشكل أو آخر في توجيه ثقافتنا الإسلامية التي توجهت بتعاليم الإسلام الآمرة الناهية، وتشبعت بهديه على نحوٍ قد يكون كاملاً أو ناقصاً بحسب الاستعدادات والظروف التي أحاطت بممارسة الإسلام نفسه عبر الزمان والمكان.

واليوم وقد ضمر الإحساس بثقل أمانة الاستخلاف الإسلامي التي تُطوق أعناق المنتمين للإسلام، والذين صار شائعاً بينهم التفريط في أداء الواجبات، والاستخفاف بالمسؤوليات، والتراخي في إعداد أسباب النهوض بأعباء الحياة الكريمة والسعيدة في الدنيا والآخرة؛ فإن إحياء روح الأمانة العظمى لإقامة الدين في بلاد المسلمين، واستعادة الأمة لقدرتها على السعي الدؤوب بكفاءة

وفعالية في مجالات البناء والنماء، لن يتأتى دون تأصيل ثقافتنا الإسلامية، ودون تجديدها بإعادة ربطها إلى أساس الاستخلاف في الأرض، المؤهل ليحيي في النفوس ثقافة المسؤولية، الكفيلة بتفجير طاقاتنا الذاتية الكامنة والمعطلة، وتعبئتها الكاملة في سبيل صلاح النفس وإصلاح المجتمع.

٢) السمات العامة لثقافة الاستخلاف

لكل ثقافة سماتها العامة التي تتشكل في إطار اتجاهها العام، وتُستمد من روحه وقوته وحيويته، وعليه يمكن تحديد أهم السمات التي يمنحها اتجاه الاستخلاف لتأصيل الثقافة الإسلامية وتجديدها، بالنظر إلى ما يكتنزه من معاني ودلالات الأمانة العظمى التي يتحملها الإنسان على ظهر هذه الأرض.

١ -الإنسانية:

يعتبر مبدأ الاستخلاف في الأرض من موحدات الإنسانية، فالاستخلاف يساوي بينهم في تحمل المسؤولية أمام الخالق، استناداً إلى الإمكانيات المعرفية المتوفرة لكل فئة، وفي كل زمان ومكان.

كما أن «المجتمع المسلم الذي تبنيه الحضارة الإسلامية، ليس مجتمعا محليًا أو إقليميًا فضلاً عن أن يكون مجتمعًا عِرقيًا، وإنما هو مجتمع إنساني عالمي يضم الأسرة الإنسانية كلها، ويحسن التعامل معها في أي زمان ومكان، وسواء أكان الناس داخلين في الإسلام أم غير داخلين»[١].

(١) عزيز عدنان، المسلم الرسالي ومسؤولية الاستخلاف، طوب بريس، ط١، ١٤٣٢/ ٢٠١٠، الرباط، ص ١٣٩- ١٤٠.

فالرسول ﷺ بُعث للناس أجمعين، وليس إلى العرب وحدهم: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨]، وخطاب الإسلام يَروم إصلاح الإنسان من حيث هو إنسان مستخلف في الأرض ومسؤول عن صلاحها وأمنها وسلامها.

٢- الرسالية:

إن المحور الأساس لثقافة الأمة الإسلامية يدور حول رسالية إسلامية في روحها ووسائلها وغايتها، ومعاني الرسالية مبثوثة في مكونات الدين عقيدةً وعبادةً وأخلاقًا، وفي بوتقتها تنصهر ثقافة الأمة وتصطبغ بصبغة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي تنشغل بها الأمة بجميع مرافقها وشرائحها على مدى وجودها، وداخل الأمة في تفاصيل حياتها اليومية، وخارجها في اتجاه الأمم الأخرى، بما يلزم من الحكمة والرحمة والقصد إلى إنقاذ الناس من شقاء الدنيا والآخرة، والإحسان إليهم بما يتيسر من الإمكانيات لإسداء المعروف إليهم، والتخفيف من معاناتهم الحياتية، تأكيداً لعالمية الإسلام وبُعده الإنساني،وانسجاماً مع مضمون الأمر الإلهي: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تجري في أبعادها الواسعة التي قد تلتقي مع ما يعتقده الآخرون أنه خير ومعروف، وما يرفضونه من الباطل والظلم الذي تنكره قلوبهم وتتقزز منه أنفسهم، ويكتوون بناره في معاشهم ومكابدتهم للحياة.

٣-الوسطية:

لا يَسوغ وصف الأمة الإسلامية بالوسطية حتى يغدو الاعتدال والبعد عن

التطرف سمةً مطردةً في فكر أبنائها وسلوكهم وجميع مناحي حياتهم، وأن يسهم كل شخص في رسم صورة هذه الوسطية بجميع عناصرها في مجالات العقيدة والعبادة والمعاملات ومناشط الحياة كلها، وأن يكون حريصاً على ألا يَصدر عنه سلوك شاذ يدفع الأمم الأخرى إلى تكوين صورة مُخلة بوسطية الأمة، مشوِّهة لموقعها وطبيعة دينها المتميز بوسطيته وشهادته على الناس على امتداد الوجود البشري، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وعندما يؤدي سلوكُ فردٍ زائغٍ عن وسطية الإسلام، إلى اتهام دين الله الخاتم المحفوظ من التحريف، بالتطرف والغلو؛ فآنئذٍ تنتقل الجناية من مستوى الفرد إلى الجناية على الدين والأمة، وهي أعظم جُرم وأشده عقاباً في الدنيا والآخرة، فما يؤدي إلى ممنوع في الشرع؛فحكمه المنع أيضاً.

ولا سبيل لدفع المسؤولية عن هذا المآل الشنيع بوجود قصور في نظر المتهِمين، أو رغبة جامحة للنيل من الإسلام والمسلمين وتجاوز العقل والمنطق، فذلك نفسه هو ما يتوقع أن يفعله عبدة الأصنام لو سُبَّت معبوداتُهم، فجاء المنع بِناءً على احتمال كبير، أما اليوم فإن اتهام الإسلام بالإرهاب وقتل الأبرياء من طرف المناوئين له، صار حقيقة مريرة تعاني ويلاتها الأمةُ قاطبةً في كل مكان وحين.

٤ - الفاعلية:

تعاني الأمة الإسلامية تراجعاً في الفاعلية وفتوراً في الهمة، مما يفرض عليها إعادة تأهيل ثقافتها لتكون قادرةً على استرجاع فاعليتها وحيويتها التي مَكَّنتها في الماضي من أن تكون رائدةً قائدة، ويمكنها عن طريقها اليوم أن تستأنف عطاءها

العلمي وإنجازها الحضاري. «إن الإنسان لما يؤمن أنه الأثير لدى الله، وهو الخليفة له في أرضه؛ فإنه تُنزع منه دواعي الضعف والانهزام والوهن، ويتولد فيه العزم على أن يكون على قدر المقام الذي وُضع فيه»[١].

فمصدر قوة الأمة الإسلامية، كامن في دينها الخاتم، «وقيَمه التي تربط الأرض بالسماء، فتجعل إنسان الأرض لا يتحمس لعمارتها إلا بأوامر الله تعالى، فإذا حيل بين الأمة وهذه الأوامر؛ فقدَتْ محركَها الأولَ ودافعها الأساس»[٢].

ومن هذا المنطلق؛ يعتبر الإحساس بالمسؤولية أقوى محرك للنفس في اتجاه القيام بالواجبات بأعلى درجة مستطاعة من الإتقان والإخلاص، وتزداد هذه الحقيقة تأكيداً بالنسبة للمسؤولية الشرعية، حيث المحاسب عليها والمراقِب لها هو الله العلي العظيم، الذي وسِع علمُه كلَّ شيء،وهو على كل شيء قدير، والجزاء عليها خلودٌ في الجنة،في نعيمٍ لم تر مثلَه عين، ولم يخطر على قلب بشر، ونجاةٌ من نار جهنم وعذابها الشديد، الذي لا طاقة لبشر عليه.

وتأثر النفس بهذه المسؤولية؛ متوقف على مدى إيمانها بالله وتصديقها باليوم الآخر وما يتعرض فيه بنو آدم من حساب يسير ونعيم دائم أو جحيم مقيم، فمن آمن بالله واليوم الآخر، استسهل كلَّ صعبٍ من تكاليف الدين، واسترخص كلَّ غالٍ ونفيس في سبيل الله والفوز برضاه يوم القيامة، ولن يَرقى إلى مثل عزمه وحزمه إلا مَن زاد عليه في الإيمان واليقين بصدق وعد الله.

---

(١) عبد المجيد عمر النجار، قيمة الإنسان، مركز الدراسات والنشر ودار الزيتونة للنشر – الرباط، ط١، ١٤١٧/ ١٩٩٦، ص٥٣.

(٢) يوسف إبراهيم يوسف، استراتيجية التنمية الإسلامية، نقلاً عن رمضان توفيق رمضان عبيد، الثقافة وآثارها على التنمية، مكتبة مدبولي، ط١ القاهرة، ١٤٣٥/ ٢٠١٣، ص٣٠٤.

٥ - التنمية:

تمتاز الثقافة الإسلامية على كل الثقافات المادية، بقدرتها الهائلة على تحريك الإنسان من أعماق قلبه، انطلاقاً من نظرية الاستخلاف التي تُعد أفضل تأطير نظري شرعي لعلاقة الإنسان بالتنمية.

فهي تُرسي هذه العلاقة على الأسس المكينة لأمانة الاستخلاف، التي تنتظم السلوكَ الإنساني على الأرض، سواء كان عقيدة غيبية أو عبادة عملية، أو معاملة جماعية في ميادين الحياة المتعددة.

ومن هذا المنظور تصير التنمية سلوكاً تعبدياً تتوفر لها كل مقومات الحيوية والفعالية والاتزان والرشد، ويجعلها وسيلة لتجسيد خلافة الإنسان ومسؤوليته عن إعمار الأرض وتحقيق كرامته وحريته بعيداً عن منطق الصراع والهيمنة والاستغلال، الذي غدا من السمات الثابتة للتنمية العلمانية.

فالتنمية التي تنشدها الثقافة الإسلامية، والتي تحكمها توجيهات الإسلام الربانية وأخلاقه السامية، تستوعب كلَّ تعاون بين الناس يحفظ مصالحهم العامة، وتُجرِّم كل سلوك يرمي إلى إثراء فئة وإسعادها على حساب فئة أخرى، حتى ولو كانت هذه الفئة الأخرى دولة كافرة، فالمفروض أن كل علاقة تربط بينها وبين دولة إسلامية، قائمة على العدل والرضا، لا على التسلط والظلم والاستغلال.

فالتنمية سلوك إنساني، يتوجه بمنظومة القيم التي يتربى عليها الفرد داخل المجتمع، فيستقيم ويرشد بصلاحها، وينحرف ويختل باختلالها، ومن ثم تتأكد علاقة الثقافة الإسلامية بالتنمية بمدى تشبع الفاعلين في مجالها الرحب بقيم الأمانة والصدق والإتقان وغيرها من أخلاق المسؤولية الاستخلافية.

٦- المسؤولية:

إن المسؤولية في المنظور الإسلامي تنمي في ذات الإنسان جميع مكوناتها النفسية، التي يصيبها ضمورٌ في ظل الثقافات والتصورات الوضعية، فيَنتج عن ذلك خلل في بناء الفرد والمجتمع والحضارة.

فعن طريق المسؤولية «تنال النفس حظها من التنمية والتزكية، بحيث تنتعش الفطرة باتباع الحق والسير على نهجه القويم، ويكون لتوجيهها صداه الطيب وأثره الواضح في فكر الإنسان وسلوكه، ويحصل الانسجام بين تطلعاتها وتطبيقات الشرع وأحكامه، ويطمئن القلب ويصح بحفظ الأمانة التي يتشربها بممارسة الإيمان اعتقاداً وتصديقا وتعلماً وتعقلاً واستنتاجًا، ثم بذكر الله وعبادته، والإخلاص له ومحبته ورجائه وخوفه، والتوبة إليه واستغفاره ودعائه والتوكل عليه، إلى غير ذلك من أعمال القلب الإيمانية الكثيرة، التي يحصل له بها النشاط والنماء والقوة والسعادة، إلى أقصى مدى تشاءه رغبة الإنسان، وتتطلع إليه همته، وهو يتعامل مع الخالق.. وكذا مع عالم الغيب الرحب»[(١)].

ولا يَرد في القرآن أمر ولا نهي دون أن يُشفع بما يصبغه بصبغة الأمانة ونتائجها جزاءً وعقابًا، لأن كل عمل تكليفي إذا لم يكن مؤطَّراً بروح المسؤولية؛ افتقدت النفسُ الرغبةَ في الالتزام به فعلاً أو تركًا، فهان عليها إهمالُه وعدمُ الاكتراث به، فمن أمثلة الأمر: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠]،

(١) عبد السلام محمد الأحمر، المسؤولية أساس التربية الإسلامية، كتاب تربيتنا رقم ٤، نشر الجمعية المغربية لأساتذة التربية الإسلامية، مطبعة طوب بريس، الرباط، ط١، ١٤٢٨/ ٢٠٠٧، ص ٢٤-٢٥.

ومن أمثلة النهي: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

فالنفس تتدرج في استشعار ثِقل الأمانة، فيزداد لومُها ومحاسبتُها للإنسان في كل ما يخوض فيه من أفكار وأفعال، حتى لا تكاد تترك للإنسان مجالاً للتقاعس في أداء الواجب أو انتهاك الممنوع. وهذا اللوم من النفس ليس حالة عابرة في سياق الممارسة الدينية؛ وإنما هو مقصد عام من مقاصد الشرع، ومطمح ثابت في إحساس المسلم يجاهد عليه نفسَه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠]، ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١-٤].

قال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾: «المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه: ما أردتُ بكلمتي؟ ما أردتُ بأكلتي؟ ما أردتُ بحديث نفسي؟ وإن الفاجر يمضي قُدُمًا ما يعاتب نفسه»[1].

وفيما يتعلق بالمسؤولية الجماعية، فقد مرت بالأمة فتراتٌ انقطع على مداها الاستلهام من روح القرآن والسنة وبياناتهما المؤكدة بأن مشاكل الأمة الإسلامية لا تكون قطعًا إلا من عند نفسها، من ذلك في القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]، يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن

(١) تفسير ابن كثير، دار الفكر- بيروت، ١٤٠١-١٩٨١، ج ٤، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩.

يصلحوا أنفسهم، ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم، ومخبراً لهم أنه من أصلح أمرَه لا يضره فسادُ مَن فسد من الناس، سواء كان قريباً منه أو بعيداً[١].

(وإذا استقامت الأمة على دين ربها ولم تشذ عن هديه الرباني؛ فلن تستطيع مناوشات الأعداء أن تنال منها شيئاً، بل ستكون الأمةُ المقيمةُ للدين؛ منيعةَ الجانب قوية الشكيمة، لا يجرؤ أجنبي على تهديد أمنها واستقرارها)[٢]، فقد كتب الله على أمة محمد أن يخلي بينها وبين نفسها كي تتحمل مسؤولية ما يكون عليه حالها من القوة والضعف والصلاح والفساد والوحدة والفرقة.

٧- الجمالية:

تتميز الثقافة الإسلامية باعتماد منظور خاص لمفهوم الجمال، والذي يقوم عموماً على جمال الحق وقُبح الباطل، والجمع بين جمال الظاهر والباطن، والشكل والمضمون، والمبنى والمعنى، والجسد والروح، بل إنها تعطي قيمةً أكبر لجمال المعنويات على جمال الماديات، ولا تلتفت إلى جمال الظاهر إذا انطوى على قبح الباطن، وفيما يلي بيان لقيمة الجمال في الثقافة الإسلامية:

أ/ ابتلاء الله الإنسان في الدنيا بفعل ما هو أحسن:

بيَّن الله تعالى أن الإنسان في هذه الحياة الدنيا إنما وجد ليُختبر ويُبتلَى هل سيفعل الحسن والأحسن أم السيئ والأسوأ، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير للآية.

(٢) ثقافة الأمة الوسط، مرجع سابق، ص٥٥.

قال الفضيل بن عياض عن أحسن العمل: «هو أخلص العمل وأصوبه، فسئل عن معنى ذلك، فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة»[(١)].

ب/ تمييز الأعمال التكليفية بالحسنة والسيئة:

كل الأعمال الصالحة التي دعا إليها الشرع وحث على فعلها وامتدح فاعليها وأثنى عليهم، تدخل في مسمى الحسنة التي تحسن في الشرع الداعي إليها، وتحسن في القلب والذوق الإيماني الرفيع، وكل عمل قبيح استنكره الشرع واستبشعه يدخل في مسمى السيئة التي يسوء قولها وسماعها وفعلها ورؤيتها، وتستقذرها النفوس التي تشبعت بفعل الحسنات واجتناب السيئات.

وقد وصف اللهُ أعمالاً ومعاملاتٍ بالجمال فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٨]، ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ [المعارج: ٥]؛ ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [المزمل: ١٠].

ووصف سبحانه المباحات بالطيباب، والمحرمات بالخبائث فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، كما وصف أقوالاً بأنها طيبة: ﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ

(١) ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م (٢/ ١٢٤).

﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤] ووصف الناس بأن منهم الطيب والخبيث: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وسُئلَتْ عائشة رضي الله عنها: كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان؟ فقالت: **«ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعًا فلا تسأل عن طولهن وحُسنهن، ثم يصلي أربعًا فلا تسأل عن حُسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا»**(١).

ج/ مطالبة المكلَّفين بالإحسان في كل المعاملات والتصرفات:

فالثقافة الإسلامية المبنية على خطاب الشرع كتابًا وسنة، تدعو المكلفين ليتجاوزوا في أفعالهم درجة الحسن إلى ما هو أحسن في أعلى مراقي الإحسان المقدور عليها، لتغدو معاملات المسلمين فيما بينهم مُفعمةً بالحُسن عابقةً بالجمال﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢]؛ ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣]؛ ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥]، ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]؛ ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

---

(١) مسند الإمام أحمد مُخرَّجًا.

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تبارك وتعالى كتب الإحسانَ على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسِنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدُكم شفرتَه، ولْيُرِحْ ذبيحتَه**»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما قدِم النبي ﷺ المدينةَ كانوا من أخبث الناس كَيلاً، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١] فأحسَنوا الكَيلَ بعد ذلك»(٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قتلتم فأحسنوا، فإن الله محسن يحب المحسنين**»(٣).

إضفاء صفة الجمال على استيفاء الشيء شروط كماله:

تتعدد صور الجمال في المنظور الإسلامي، متجاوزة تناسق الظاهر في الأشكال والأجسام، إلى الاقتراب من الكمال والتكامل في التكوين والتركيب العام.

فهذا الإمام ابن قيم الجوزية، يصف الفتوى التي يَعتمد فيها سَوقُ الأدلة على ما تضمنته من أحكام بأنها جميلة، فيقول: «عاب بعضُ الناس ذِكرَ الاستدلال في الفتوى، وهذا العيب أَولى بالعيب، بل جمال الفتوى وروحها هو الدليل»(٤).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) حسنه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٧/ ٢٦١).

(٣) قال الألباني في كتابه «الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٨٤٠)» على سند الحديث: (وهذا إسناد جيد رجاله ثقات معروفون، غير محمد بن بلال).

(٤) نفسه (٤/ ٢٠٠).

ومن هنا فإن جمال الإنسان لا يكون بتناسق ظاهره حتى ينضم إليه جمال الباطن،الذي لا يتحقق إلا بالإيمان والتقوى وسلامة القلب من أمراضه وآفاته، وتطابق السريرة مع العلانية، والشكل مع المضمون، مع إيلاء جمال الباطن الأولوية على جمال الظاهر،فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تُنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك**»(١).

وقد لفت ابن قيم الجوزية إلى أن الله تعالى جمع لأوليائه بين جمال الظاهر والباطن، في آيات قرآنية كثيرة: «فزين وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالنظر إليه، فلا أجمل لبواطنهم ولا أنعم ولا أحلى من النظر إليه، ولا أجمل لظواهرهم من نضرة الوجه وهي إشراقُه وتحسينه وبهجته، وهذا كما قال في موضع آخر: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]، ونظيره قولُه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦]، فهذا جمال الظاهر وزينته، ثم قال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فهذا جمال الباطن، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]، فهذا جمال ظاهرها، ثم قال: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٧]، فهذا جمال باطنها»(٢).

ومن مسؤوليات الإبداع الجمالي في مجال الأدب والذوقيات: التقيد بمقاصد الدين العامة وأحكامه الفقهية ومنظوره الخاص للجمال.

---

(١) متفق عليه.

(٢) ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان (ص: ١٥٦).

خاتمة

ينتهي التفكير في موضوع تأصيل الثقافة الإسلامية، إلى تأكيد أهمية الانطلاق من الإيمان بالله باعتباره أساس الإسلام الذي قام عليه بُنيانُه في العقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق، وجميع تصوراته للسياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية والثقافة والفكر والحضارة.

ويعد التوحيد الركيزة الأساس في العقيدة الإسلامية،كقاعدة لتأصيل الثقافة الإسلامية خاصة في بُعدها الاعتقادي، لتصحيح الرؤية وترشيد مسارات التفكير والتنظير في قضايا الحياة الثابتة والمتغيرة.

كما أن الاستخلاف الإسلامي الذي يتميز باستيعابه لحقائق الإيمان والتوحيد،يتميز أيضاً بقدرته الواسعة على تفعيل العقيدة الإسلامية في النفس والسلوك، وتأطير رؤيتها للثقافة التي تنشأ عنها وتتوجه بها، وذلك بتجديد قيم الأمانة العظمى التي يمكنها تعبئة كامل الطاقات والقدرات الإنسانية، باتجاه تحقيق السواء الاعتقادي والتعبدي والأخلاقي، وامتلاك تمام الفاعلية في البناء العمراني والإنجاز الحضاري.